فن الإبداع وإتقان العمل في الثقافة الجاهلية
دراسة سوسيولسانية لزائية الشماخ بن ضرار

the art of creativity and the improvement of work in pre-Islamic culture
-a sociolinguistic study of al-shamakh bin dirar-

د. مختار بزاوية

جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر (الجزائر)

mokhtar.bezzaouya@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/18 **تاريخ القبول: 2023/01/22**

ملخص:

سَجَّل الشعر الجاهلي مظاهر حياة العرب وبيئتهم، وأحوالهم المختلفة، ومِنْ تِلكُم المظاهر الحياة الاجتماعية، وقد ركزتُ في هذه الدراسة على جانب قلّما ينتبه إليه الباحثون وهو فن الإبداع وإتقان العمل، وكيف يتعلق به صاحبه أشدّ التعلّق، وهذا من خلال القصيدة الزائية للشاعر "الشماخ بن ضرار"، وهي من أروع قصائده التي نظهما، فجاء البحث على شكل دراسة سوسيولسانية للعمل في الثقافة الجاهلية، مع امتزاجه بالأحاسيس المرهفة والمشاعر النبيلة، خاصة حينما يفقد الإنسان أغلى وأنفس ما عملت يداه.

الكلمات المفتاحية: العمل؛ الإبداع؛ الجاهلية؛ الزائية؛ الشماخ بن ضرار.

Abstract:

Pre-Islamic poetry transcribed different aspects of Arab life, their environment and thus aspects of social life. This study will shed light on a point rarely studied by scholars, namely the art of creativity and perfection in the work through the poem of Al-Zaiya by the poet Shammakh Bin Dirar. This poem is undoubtedly one of his most accomplished. Our research is a sociolinguistic study of this work in pre-Islamic culture, where delicate feelings and noble sentiments are intertwined, especially when a person loses the most precious thing, the one created by his own hands.

***keywords**:* work, creativity, pre-Islamic, Al-Zaiya poem, Shamakh Bin Dirar.

مقدمة:

إنّنا في هذا الظرف الذي طغت فيه الثقافة الغربية على عالمنا العربي والإسلامي، لفي أمَسِّ الحاجة إلى الالتفات إلى تراثنا الفكري والأدبي والروحي، كي نستمد منه ما يُعينُنَا على إرساء قواعد لنهضتنا، ترتكز على المثل الروحية والأخلاقية والإنسانية التي يشتمل عليها تراثنا المجيد منذ أقدم العصور، ولعل بعضاً من تراثنا الأدبي لا يزال مغمورا لم تُسلَّط عليه الأضواء، أو لم يُقرأ قراءة مناسبة تتماشى ومتطلبات النهضة والتقدم في هذا العصر[1].

ومن ذلك التراثِ الشعرُ الجاهلي الذي يُعدّ أحد الوثائق الناقلة لجوانب الحياة الجاهلية، والصورة الصادقة والمعبرة عن عادات العرب وتقاليدهم ومُثُلِهم، وهو يحوي من القيم الفنية، والصور الجمالية الرائعة، والمعاني الدقيقة الموحية، ما يجعله بحق يتصدر ذروة الشعر العربي، فالعصر الجاهلي بما تضمنه من هذه العادات والمُثُل والقِيم، وأنماط الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية وغيرها، قد وُجد أكثره مبثوثا في الشعر وبعضه في الأجناس الأدبية الأخرى كالأمثال والحِكم وغيرهما. فالشعر إذاً مصدر رئيس في دراسة المجتمع الجاهلي بكل تفاصيله.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات حول الشعر العربي، وتناوله قديماً وحديثاً من قبل الباحثين والدارسين والنقاد، فلا يزال الطريق مفتوحاً للمزيد منها، "فالشعر الجاهلي لا يزال مذخورا بالكنوز المسهُوِّ عنها، وهو الجذْر الذي تفرَّعت منه فروع الشعر في الأعصار المختلفة، وفي البقاع المختلفة، والأزمنة المختلفة إلى يومنا هذا، وليس عندنا بَعْدَ كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم بيانٌ أعلى منه، وهذا ما أجمع عليه علماء الأمّة"[2].

وهذا يدلّ على قيمة هذا التراث الشعري ومَعينه الجمّ، الذي يتجدد بتجدد الدارسين والناقدين له، في الدراسات الأدبية والبلاغية والنقدية وغيرها، ولِما لهُ في فهم الكتاب والسنة من دورٍ كبير لا يخفى على أولي الألباب والعقول. كما أنّ المتجوِّل في هذا التراث الشعري والناظر فيه بعين التدبر والإحساس والتذوق، يلمس لا محالة مكامن الحسن والجمال والإبداع الإنساني، وأنه كان منبعا ومنهلا لكل العلوم الأدبية واللغوية التي ظهرت لاحقا، بعد كتاب الله وكلام المعصوم صلى الله عليه وسلم.

والجوانب المتعلقة بدراسة الشعر الجاهلي كثيرة ومتعددة، ولعلّ البعد الاجتماعي من أهم هذه الجوانب، لكونه يكشف بعمق تفاصيل وأسرار الحياة العربية، والقِيم التي تبنّاها الإنسان العربي وأطّرت حياته ككل، فظروف البيئة القاسية المحيطة به، وقوانين العشيرة والقبيلة، والعيش على الإغارة والبحث عن الكلأ والماء وأمور أخرى، كل ذلك ساهم في رسم صورة العربي في فكره وثقافته وتعلقه بالبادية والصحراء.

وبما أنّ حياة العرب في صحرائهم القاحلة قامت على الحروب والنزاعات والإغارة على الضعفاء، فلا شكّ أنّهم تكيّفوا مع هذه الحياة وأعدوا لها العدّة دفاعا عن أنفسهم فكانت الشجاعة والفروسية من أهم ما يجب أن يتصف به الفرد في القبيلة ليحمي ذمارها ويردّ عنها الأعداء المغيرين المعتدين، واكتساب الأسحلة والإجادة في صنعها واستعمالها ضرب آخر من ضروب القوة والصلابة، لتحصيل الظفر والفوز في الحروب والمعارك والمواجهات.

ومن تلكم الأسلحة القوس والسهم، فهما من الأدوات الفاعلة والمهمّة بل والضرورية في حياة العربي في السِّلم والحرب، ففي الحرب هما أداتا نصر وغلبة، فتجدهم قد أكثروا من وصف قسيّهم وسِهامهم التي أعدّوها لقتال أعدائهم، وأما في السِّلم فهما وسيلتان لكسب العيش والقوت عن طريق الصيد والقنص. والحديث عن القوس خاصة هو لَبِنة موضوعي المتعلق بإجادة وإتقان صنعها، وتحَوُّلًها من مادّة إلى آفاق من الرمزية والأسطورية؛ تنبئ عن مدى تعلق الشعراء بها ووفائهم لها. ووالواصفون لها من الشعراء الجاهليين كُثُر، اشتهر منهم جماعة أسهبوا في وصفها وأفردوا القصائد لها، ومنهم: أوس بن حجر، والشماخ الذبياني والشنفرى الأزدي[3].

وقد اخترت قصيدة الشماخ بن ضرار الذبياني "الرّائية" في وصف القوس، لأنّها من عيون وروائع الشعر العربي دون منازع، وهي درّة شعره، وفريدة في بابها، وهي تتحدث عن الموضوع قيد الدراسة في هذه البحث بلغة بيانية راقية، حيث امتزج إتقان العمل وإجادته مع الأحاسيس المرهفة، وشدة التعلق بالعمل المنجز، ولكنّ الظروف أحينا تضطر الإنسان للتفريط في أغلى ما صنعت يداه.

وفيها أيضا من اللوحات الفنية وبراعة التصوير ما يسحر الألباب ويُبهر القارئين، فقد تحدّث عن الحمار الوحشي، وأثناء وصفه الدقيق يتغلغل في نفسيته ويتتبع أدقّ خلجاته ونبضات قلبه، ومختلف أحواله، حتى كأنه يعيش معه، لتلك الدقة العجيبة في رصد أحواله الخارجية، وما يختلج في نفسه من انفعالات[4].

ثم ينتقل إلى وصف القوس في قالب قصصي امتزج فيه السرد مع الوصف، ويروي كل المراحل التي مرت بها، وطريقة صنعها في إتقان لا مثيل له، ثمّ كيف اضطر تحت وطأة البؤس والفاقة إلى أن يبيعها إلى من يعرف قدرها وجودتها، لتستقر في يد الشاري، ويحزنَ عليها حزنا شديدا تنسكب معه العبرات، ويضطرب معه الفؤاد ويرتاع[5]. كل هذه المعاني استهوتني وجعلتني أُفتنُ بهذه القصيدة، وقد عالجت الموضوع بمنهجية اللسانيات الاجتماعية أو ما يدعى بالمنهج السوسيولساني.

أولا– التعريف بالدراسة السوسيولسانية:

يرتبط المنهج الاجتماعي بقراءة النصوص الأدبية وتحليلها من منظور مدى تعبيرها عن الوسط الاجتماعي الذي أنتجها، وهو بذلك يتعامل مع الظاهرة الأدبية، ليس بوصفها ظاهرة مستقلة بذاتها، وبخصوصيتها وفرادتها الإبداعية، وإنما بعد النصوص الأدبية وسائر الفنون غير مستقلة عن شروط إنتاجها الاجتماعي، وتحمل داخلها آثار المجتمع والجماعة والمؤسسة الأدبية التي أنتجتها، مستفيدا من علم السوسيولوجيا في معالجته للظواهر الإنسانية والظواهر الاجتماعية المختلفة[6].

ويعد البحث عن العلاقة بين اللغة والمجتمع من المواضيع التي أثارت انتباه الإنسان منذ القدم، عند اليونان ومن جاء بعدهم ... كما أن النحاة العرب القدامى اهتموا باللهجات العربية وتنوع الأساليب اللغوية، ومن أشهرهم ابن جني الذي يرى أنّ كثرة الألفاظ على المعنى الواحد هي في الحقيقة لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد[7].

ومع ظهور اللسانيات في العصر الحديث أكد العالم اللغوي دي سوسير أنّ اللغة مؤسسة اجتماعية، وأنّ دراستها هي دراسة لنسق من الوقائع الاجتماعية بحيث أنّ الكلمة

لا تأخذ قيمتها إلا داخل نسقها اللغوي والاجتماعي[8]. أي أن اللغة لا قيمة لها إلا إذا دخلت حقل التداول، فتتحول بذبك إلى علاقة اجتماعية، فهي نسق من الإشارات والعلامات التي لا معنى لها إلا إذا اكتسبت قيمة تبادلية وتداولية واستعمالية، من خلال تحولها إلى علاقة اجتماعية استغلالية في حيز التداول اللغوي لتنتج فائضا في المعنى[9].

ويمكن الحديث عن مقاربات لسانية تندرج ضمن لسانيات النص أوالخطاب، وهي: "اللسانيات الاجتماعية"، أو "علم الاجتماع اللغوي"، أو "علم اللغة الاجتماعي"، أو "السوسيولسانيات"، أو"اللسانية الاجتماعية"... وهي مسميات اصطلاحية مختلفة لعلم يدرس اللغة في ضوء علم الاجتماع، أو يربط الملفوظ اللغوي بسياقه التواصلي والاجتماعي والطبقي. وإذا بحثنا عن الفوارق الموجودة بين اللسانيات وعلم الاجتماع اللغوي فلا نجد فرقا كبيرا بينهما؛ لأنّ هدفهما واحد يتمثل في التواصل، والارتباط بالسياق الاجتماعي. وأكثر من هذا تصبح اللغة حدثا اجتماعيا بامتياز. لذا فاللسانيات في الحقيقة، هي اللسانيات الاجتماعية[10].

وتعنى اللسانيات الاجتماعية بدراسة الوظيفة الاجتماعية للغة؛ أي تدرس التبدلات الاجتماعية للغة في علاقتها بالمتكلمين الناطقين، من حيث السن، والجنس والفئة الاجتماعية والوسط، والمستوى المهني، والمستوى التعليمي؛ وتحليل العلاقة القائمة بين اللغة والممارسات الاجتماعية (العائلية، والدراسية، والوظيفية)...؛ ثم تفسير الوظيفة الاجتماعية للغة والاهتمام بقضايا لغوية واجتماعية كبرى تتعلق باللغة الأم، وموت اللغات، وعلاقة اللغة باللهجة والفصيلة، والثنائية والتعددية اللغوية، والأنظمة اللغوية المركبة والمعقدة، وتدبير التعدد اللغوي، والسياسات اللغوية، والتخطيط اللغوي[11].

وتنبني المقاربة اللسانية الاجتماعية على مجموعة من المرتكزات تتمثل في: المكان الجغرافي، والعمر، والجنس، والأصل الاجتماعي، وسياقات استعمال اللغة. لذا، أثبت العالم الاجتماعي الأمريكي **وليام لابوف** (**William Labov**) صعوبة فصل اللغة عن المكون الاجتماعي الأساسي فيها. ومن ثم، أشار إلى أهمية ربط بنية اللغة من اللغات بالسياق الاجتماعي العام الذي تنشأ فيه تلك اللغات، لدرجة استبعد فيها أي إمكانية للفصل بين

اللسانيات وعلم اللغة الاجتماعي. وإذا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية، فإن اللسانيات ذات بعد اجتماعي[12].

ثانيا– التعريف بالشاعر[13]:

هو الشمّاخ بن ضرار بن سِنان بن أميّة بن عمرو بن جِحاش بن بَجالة بن مازِن بن ثعلبة بن سعد بن ذُبيان. وأمّ الشّماخ أنمارية من بنات الخُرشُب، ويُقال: إنّهنّ من أنجب نساء العرب، واسمها مُعاذة بنت بُجَير بن خالد بن إيّاس. والشّماخ مُخضرَم ممّن أدرك الجاهليّة والإسلام، وقد قال للنبيّ صلى الله عليه وسلّم:

تَعلَّمْ رسُولَ اللهِ أنّا كَأنّنَا أَفَأْنَا بأَنْمَارٍ ثَعَالِبَ ذِي غِسْلِ

تعَلَّم رَسُول الله لمْ نرَ مِثْلَهُمْ أَجَرَ عَلَى الأَدْنَى وَأَحْرَمَ لِلْفَضْلِ[14]

يعني أنمارَ بن بغيض وهم قومه. وهو أحد من هجا عشيرتَه وهجا أضيافه ومنَّ عليهم بالقِرى[15]. والشّماخ لقب واسمه معقِل، وله أخوان من أمه وأبيه شاعران: أحدهما مزَرَّد وهو مشهور، واسمه يزيد والآخر جَزْء بن ضرار.

وقد جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية، وقرنه بالنابغة الجعدي، وأبي ذؤيب الهذلي، ولبيد بن ربيعة العامري. وقال عنه: «فأمّا الشماخ فكان شديد متون الشعر[16]، أشد أَسْر كلامٍ من لبيد[17]، وفيه كزازة[18]، ولبيد أسهل منه منطقاً».

ورُوي أنّ الحطيئة قال في وصيته: «أبلغوا الشّماخ أنّه أشعر غطفان». وهو أرجَزُ الناس على بديهة، وأوصف الناس للقوس والحَمير، وقد أُنشِد للوليد بن عبد الملك شيئ من شعر الشماخ في صفة الحمير قال: «ما أوصفَه لها! إنّي لأحسب أنّ أحد أبويْه كان حمارا». شهد القادسية وتوفي في غزوة موقان في زمان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 22هـ.

وقد عاش الشّماخ طفولةً مؤلمةً، ذاق فيها مرارة اليُتم صبيّاً، وابتُليَ بوجه دميمٍ، وقامةٍ قصيرة لعلهما كانا سبب معاناته في شبابه، فضلا عمّا عُرف به من تشدُّدٍ في الإنفاق، مع إخفاقه في الزّواج مرّتين. وفي خضم هذه الحياة الأسرية المضطربة والاجتماعية وجد الشاعر نفسه في عُزلة خانقة، وكانت الرحلة سبيله لتسلية الهموم[19]. ورغم علاقته المتأزمة بالجماعة

فإنّه قلّما نجد ذكرا لها في شعره، فهو بعيد تماما عن أحداث القبيلة، وشؤونها، وهجاء خصومها، أو تخليد مآثرها، حتى كاد شعره يقتصر على الوصف[20].

ثالثا– وصف القصيدة "الزّائية" للشماخ بن ضرار:

1– مواضيع القصيدة:

عدد أبيات القصيدة 56 بيتا، وهي تدور حول ثلاثة موضوعات: الأول حديث عن الرامي الصياد، والثاني حديث عن قصة صناعة القوس وإجادتها، والثالث حديث عن قصة بيع القوس وشراء الرامي لها[21].

فالموضوع الأول: تنحصر أبياته في عشرين بيتا: من مطلع القصيدة إلى البيت رقم (20) وفيها يبدأ الشاعر بالبكاء على أطلال سليمى التي عفا عليها الزمن في مكانها المستقر، بين المشرفات والنواشز. ثم خروج القواس الشاعر على ناقته طالبا الصيد والقنص، ثم تصوير الشاعر لمشهد الحمر الوحشية شديدة العطش تطلب عينا من الماء لترتوي منها، لكنّ الرامي البارع يمنعها ويذودها عن الماء، وهو عامر أخو الخضر[22].

والموضوع الثاني هو وصف القوس وكيفية الإبداع في صنعها، منذ أن كانت غصنا في شجرة متوارية عن الأنظار، محاطة بالأشواك والأشجار المتلاصقة، فلم يبال القوّاس بالمخاطر، وكابد عناء الطريق للوصول إليها، حتى حصل عليها متخيرا لها من هذا الفرع، ثم تركها عامين في الظل ليجف ماؤها، ويصلب عودها، فهذّبها وثقّفها إلى أن صارت من أحسن ما صنعت وما كسبت يداه[23]. وتنحصر أبياته في سبعة أبيات من البيت 21 إلى البيت 27. وقد اختلف الشراح والدارسون للقصيدة في هذا القوّاس أهو الشاعر نفسه أم رجل مجهول يحكي عنه الشاعر، أو هو الرامي عامر أخو الخضر، والأرجح الأول.

والموضوع الثالث: قصة بيع القواس لهذه القوس بسبب عوزه وفاقته، فقد انتظر موسم الحج فانطلق بها إلى السوق، فعرض عليه تاجر –له معرفة بجيّد القوس ورديئها– أن يبعها له، وراح يساومه ويعرض عليه أغلى الأثمان؛ ثيابا فاخرة، وذهبا خالصا، وجلدا مدبوغا بالقرط من جلود الماعز، فأغراه الثمن، ولكنّه تردّد واستبدت به الحيرة، والناس من حوله

يُغْرُونه بالبيع، حتى استسلم للصفقة، فلما فارقته القوس فاضت عيناه بالدموع، وجاشت صدره بآهات الندم والحسرة، واندلعت نيران الأسف، بعد أن أصبحت مِلْكا لغيره[24]. والذي باعها هو الشاعر والذي اشتراها هو عامر أخو الخضر، كما يرى صلاح الدين الهادي محقق ديوان الشماخ، ومحمد أبو موسى صاحب كتاب الشعر الجاهلي.

2- الإيقاع الصوتي للقصيدة:

بُنيت القصيدة على بحر الطويل الذي يتسم بنَفَسِه وامتداده الصوتي الطويل، الذي يُتيح للشاعر الامتداد في الحديث عن تجربته. وجاء استخدامه في هذه القصيدة منسجما مع العَناء وطول المدة الزمنية التي صاحبت صنع القوس منذ كانت غضة يانعة حتى صارت سلاحا للصيد والقنص أو القتال والحرب[25]. كما أفاد الشاعر من إمكانات بحر الطويل، لأنّه أقرب إلى الأسلوب القصصي الذي يُتيح للشاعر الاسترسال في سرد الحدث[26]، فهو يروي لنا قصة هذا القوس ويحدثنا عنها بالتفصيل في قالب سردي امتزج مع الوصف.

وإذا عدنا إلى القافية فلا يخفى علينا دورها الكبير في تحديد البنية الدلالية للقصيدة، متجاوزة بذلك الغاية الإيقاعية فقط، وزحزحتها من مكانها يهدم بنية القصيدة[27]، وهي من نوع قافية المتدارك؛ التي بين يفصِل بين ساكنيْها متحركان[28]، ومثال ذلك من البيت الأول فالقافية هي: (واشزو /0//0)، وحرف رويّه الزاي وهو من حروف الصفير، صوت رخو مجهور للنطق به يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فيتحرك الوتران الصوتيان، ثم يتّخذ مجراه من الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج[29].

وبما أنّ الصوت هو صدى للمعنى، فإن استخدام الشاعر لهذه القافية ورويها حرف الزاي أبان عن إبداع كبير وانسجام مع الدلالة المرجوة، فالقافية الدالة على الخفة والحركة منسجمة مع خفة وحركة القوس والطريدة معا، والزاي الذي من صفاته الصفير انسجم مع الصوت الذي يُحدثه السهم المقذوف من القوس[30].

3- شكل القصيدة وبنيتها:

- القصيدة من الشعر الجاهلي، وهي لا تخرج على ما عرفته القصيدة الجاهلية في شكلها وبنيتها، فالشماخ على ما جرت عليه العادة بدأ بالبكاء على الأطلال (أطلال سُلَيْمى)

وهي السمة الغالبة على الشعر الجاهلي، بل واستمرت هذه الميزة حتى مع الشعر الإسلامي والأموي.

- ذكر الرحلة والناقة ومفارقة الديار نحو الصيد والقنص وكسب القوت، مع وصف الحمر الوحشية، وقد جرى على هذا النحو كثير من شعراء الجاهليّة.
- في القصيدة ذكر لمجموعة من الأسماء تمثل أماكن وأزمنة وشخصيات جاهلية (سُلَيْمى– الغضا– ذو الأراك– القنتين– عثلب– ابني غمار– عامر أخو الخضر– المواسم..).
- وصف أدوات الحرب عامة، والقوس خاصة، وهو موضوع القصيدة، حيث شاركه في هذا الغرض مجموعة من الشعراء كأوس بن حجر والشنفرى وغيرهما.
- دقة التصوير والصور الشعرية البارزة والمعبرة بصدق عن الموضوع، في قالب سردي ووصفي، مع الامتزاج بالأحاسيس المرهفة، التي تعبر عن مظهر اجتماعي خالص، وهو التفريط في أغلى الممتلكات بسبب الفقر والحاجة.
- وحدة البيت واستقلاله والتنويع في المواضيع، من البكاء على الأطلال، إلى وصف الناقة خلال الرحلة، وصف الحمر الوحشية، وترصد القناصين والصيادين لها، ووصف القوس ومراحل صنعها، وبيع القوس في المواسم، وحزن الشاعر على بيع هذه القوس، وأخيرا بعض صفات هذه القوس.
- اللغة المعجمية القوية والصعبة، وغرابة ألفاظه الممعنة في البداوة، لذا قلّ الاستشهاد بشعره في كتب الأدب، ولكن بعض علماء اللغة وجدوا في هذا الشعر فيضاً من الغريب فاهتّموا به.

رابعا– فن الإبداع وإتقان العمل في الثقافة الجاهلية:

1– إتقان العمل في الديانات السماوية:

وجدت فكرة العمل وإتقانه منذ القديم، منذ نزول سيدنا آدم وحواء عليهما السلام إلى الأرض، ونشأة ذريتهما، لتسخير ما في هذه الطبيعة من نبات وحيوان وجماد لخدمة الإنسان وبقائه على قيد الحياة، وضمان الراحة والعيش الكريم. وقد حرصت الدينات السماوية على إعطاء العمل مرتبة عالية وربطه بالعبادة، مع إنصاف العمال

والإشادة بأعمالهم، ولا أدل على ذلك من كون الأنبياء والرسل ذوي حِرَف ومِهَن متقنين لأعمالهم، كرعي الغنم والحدادة والتجارة والزراعة وغيرها.

هذا وللعمل مكانة عظيمة في الشريعة الإسلامية، فقد ذكر جذر "عمل" ومشتقاته أكثر من 350 مرة في القرآن الكريم[31]، كما حرصت النصوص على توجيه العاملين لإتقان عملهم على أكمل وجه وأحسن صورة، قال الله تعالى: ﴿وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ الله وَرَسُولُهُ والمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة/105]، وقال أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف/30]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»[32]، وقال أيضا: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِد أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» رواه مسلم[33].

2- أدوات الصيد عند الجاهليين وأهميتها:

كان الصيد من الأعمال التي مارسها الإنسان في حياته منذ أزمان بعيدة، وهذه الأعمال كانت تمثل الصراع بين الإنسان والحيوان، حيث تَحَوَّل الصيد إلى معركة تدور رحاها بينهما من أجل ثنائية الحياة أو الموت[34]، أما عند العرب فصار الصيد ضربا من ضروب الرزق، ومُتعةً من مُتَعِ النفس ولونا من ألوان الحرب أيام السلم[35]. وسارت الفروسية مع الصيد جنبا إلى جنب، وصار من سمات الفتى الفارس أن يُجيدَ الرمي والصيد، وفي هذه البيئة الصحراوية القاسية، امتطى الشاعر فرسه أو ناقته متجاوزا العوالم المجهولة، والأهوال والمخاطر المُحدِقة، وسجّل بعض المواقف الدرامية بين الصياد والحيوانات الوحشية في الغابات والبراري[36].

أما عن وسائل الصيد، فمعلوم أنّ العرب في الجاهلية استعملوا أسلحة متنوعة، كان من أشهرها القِسِيّ والنِّبَال، ومن خلال استقراء شعرهم، يَبرُز اهتمام الجاهليين بالقوس من حين نشأتها إلى حين استخدامها، مُبَيِّنين مواطنها وشجرها، وقد كابد بعضهم من أجل الحصول على تلك القوس وعانى الأمرين، وبَذَل الغالي والنفيس لأجل استجلاب أفضل الشجر لصنعها، ولو أدى ذلك إلى موته وهلاكه[37]. وبعد المكابدة والتعب في صنعها

تصبح القوس والأسهم هما أغلى وأعز ما يملك الصياد العربي، بل أحيانا لا يملك غيرهما يقول الشماخ بن ضرار:

قَلِيلُ التِّـلادِ غَيْرَ **قَـوْسٍ وَأسْـهُـمٍ** كـأنَّ الـذي يَـرْمِي مِنَ الوحْـش تَـارزُ[38]

3- أهمية القوس عند الجاهليين دون غيرها:

القوس هي أحسن سلاح يحقق لصاحبه إصابة عدوه دون الالتحام معه، عكس السيف أو الخنجر، كما أنها في الحرب سلاح خطير، فبفضلها يستطيع الرماة إحراز النصر وقلب موازين المعركة وردع أي هجوم، وقد جعلها الصعاليك الوسيلة الوحيدة لردع القبيلة والنيل منها دون عناء ومشقة. أمّا في الصيد فهي الوسيلة الوحيدة القادرة على النيل من الهدف عن بعد لأنّ الاقتراب من الحيوان يعني فراره وعدم الظفر به. ولمكانتها الكبيرة عند الجاهليين، وضع حاجب بن زرارة قوسه رهينة أمرٍ هامٍ. والكسعي الذي حطم قوسه أصبح مثلا لكل من ضحّى بمصدر رزقه حتى قيل: "ندامة الكسعي"[39]. وفي هذا المعنى يبدع الشماخ بن ضرار في وصف القوس مبينا أهميتها في صورة شعرية بالغة الجمال حيث يقول:

إذَا أَنْبَضَ الـرّامُـونَ عنْـهَا **تَـرَنَّـمَـتْ تَـرَنُّـمَ ثَـكْـلَـى** أَوْجَعَتْـهَـا الـجَـنَـائِـزُ

قَـذُوفٌ إذا ما خَـالَـطَ الظَّبْـيُ سَهْـمَـهَا وإنْ رِيـغَ مِـنْـهَـا أَسْـلَـمَـتْـهُ الـنَّـوَاقِـزُ

إذَا سَـقَـطَ الأنْـدادُ **صِـينَـتْ وأُكْـرِمَـتْ حَـبِيراً** ولَـمْ تَـدْرَجْ عَـلَيْـهَـا الـمَـعَـاوِزُ[40]

فهذه القوس حين ينبضها الرامون أي يجذبون الوتر للرمي تسمع لها صوتا ورنينا كبكاء الثكلى المفجوعة في ولدها في الجنازة، وهي شديدة القذف للسهم، وترى الظبي حتى إذا أخطأته الرميّة وقف من هول الحدث لا يبرح مكانه ولا تستطيع قوائمه (النواقز) الحراك. كما أن قيمتها الغالية تدفع بأصحابها إلى صيانتها وإكرامها بتغطيتها بالثياب النفيسة لئلا سقع عليها الندى (وهو بلل الصباح)[41].

4- نموذج الإتقان في صناعة القوس: (زائية الشماخ)

القصيدة الزائية للشماخ بن ضرار فريدة في بابها، وهي من عيون الشعر العربي، ويمكن دراستها من جوانب متعددة وبمستويات مختلفة، وبما أنّ موضوعنا متعلق بالدراسة السوسيولسانية ركزنا على الجانب الاجتماعي وهو العمل وإتقانه، لذا سأقتصر على هذا

المستوى ومقتضياته فقط. وقد ذكرت سابقا أن الأبيات التي تصف القوس وكيفية صنعها في قصيدة الشماخ هي:07 أبيات من البيت 21 إلى البيت 27. وقد استطرد شاعرنا في حديثه عن وصف القوس بعد الصورة الشعرية التي رسمها للصياد وهو يترصد الحمر الوحشية، ويحمل قوسه التي لا تخطئ الرمية، ثم بدأ حديثه عن القوس بضمير الغائب بقوله "تخيّرها"، وحضور الضمير هنا يعني تعلقا بما قبله، وهي ثلاثة أبيات يمكن اعتبارها تمهيدا لبداية الحديث عن القوس، وهي قوله:

وَحَـلَّأَهَا عَـنْ ذي الأَرَاكَـةِ عَـامِـرٌ أَخُو الخُضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاجِزُ
قَلِيلُ الـتِّـلادِ غَـيْـرَ قَـوْسٍ وَأَسْـهُـمٍ كَـأَنَّ الـذي يَـرْمِـي مِنَ الـوحْـش تَارزُ
مُطِلاً بِـزُرْقٍ مَـا يُـدَاوَى رَمِـيُّـهَـا وَصَفْـرَاءَ مِـنْ نَبْعٍ عَـلَـيْـهَـا الـجَـلائِـزُ[42]

فقد كان وجود عامر عند ذي الأراكة مانعًا من قدوم هذه الحُمُر، وهو رام جيد، لا يرمي إلاّ حيث تكوى الإبل المصابة بمرض النجاز، وهو سعال شديد يصيب الإبل في رئتها، فتُكْوى بها جنوبها وأصول أعناقها، وهذا هو هدف الرامي الحَذِق، فهو لا يُخطئ رميّته، حيث إنها تقع في مقتل، فإنْ لم تُصِبه أوقفته مذعوًرا، خائِفاً قد خارت قواه فلا يقدر على المسير، ومعه نصال زرق يطلّ بها من مكان مشرف مرتفع، لا يمكن أن يُداوى من رُمِيَت به، وقوس صفراء من شجر نبع، قد لويت عليها عقبات؛ لتشدها وتزيد من قوتها[43]. إذن فهاء الضمير في قوله "تخيرها" تعود على صفراء أي قوس صفراء فذكر الصفة دون الموصوف، وبعدها يبدأ حديثه عن هذه القوس.

وبعد القراءة المتأنية والفاحصة للقصيدة استخلصت العناصر التالية الدالة على جودة هذه القوس، وإتقان صنعها، وهي:

4-1- حسن اختيار المادة الأساسية:

قال الشماخ بن ضرار:

تَخَيَّـرَهَا الـقَـوَّاسُ مِـنْ **فَـرْعِ ضَـالَـة** لَـهَا **شَـذبٌ** مِـنْ دُونِـهَا **وحَـوَاجِزُ**
نَمَتْ في مَكـانٍ كـنَّهَا واسْتَوتْ بِـهِ فَـمَـا دُونَهَـا مِن **غِـيـلِـهَا مُـتَـلَاحِزُ**[44]

فكلمة "تخيرها" وصف لقوله" صفراء من نبع" والفرع الضالة يعني بها النبعة، والشّذب هو فروع الشجر التي تُقطع وتبقى تسدّ الطريق إلى النّبعة، والحواجز أي الموانع، فالشاعر وقعت عينه على نبع كثير فاختار من النبع أجوده، فكأنه أدرك نفاستها وعلامة الجودة فيه، فهو يختار النبعة الصالحة مادام يرى نظائر لها، فيتخير أفضلها، ورغم هذه الحواجز الفاصلة بينه وبين النبعة إلا أنّ عين القواس تخطتها، وأبصرتها بعناية فائقة، لتتخيرها وتظفر بها(45).

وقد ذكر الشاعر موطنها الذي نمت وطالت فيه، وهو مكان كنّها أي سترها واستوت به، ويمنع من الوصول إليها الغيل المتلاحز أي الشجر الكثيف الملتف، وقد أجاد الشاعر في رسم صورة الحواجز الفاصلة بين القواس وهذه النبعة، فهناك تجانس خفيف تراه في تكرار حرف الكاف والنون في كلمتي "مكان كنّها"، وغُنّة وطُربة ملازمة أبدا لحرف النون الساكنة، وأنّ إسناد الكنّ للمكان، فيه إشارة إلى خفاء الخفاء وتضافرت معه كلمة "متلاحز" بإيقاعها الصوتي الدال على كثافة هذا الغيل والتفاف أغضانه، كما أنّ ذكر كثرة الحواجز وتكرارها في البيتين والإلحاح على وجودها، لدليل على تمنّع هذه النبعة ودقة عين القواس التي رمقتها وتخطت كل هذه الموانع(46).

4-2- مكابدة المخاطر وتحمّل الصعاب:

بعد أن رمقت عين الشاعر ما كانت تبحث عنه من مادة نفيسة لصنع القوس، صوّر هنا مكابدته للمخاطر والصعاب لأجل الظفر بها، لأنّ هذه النبعة ليست ميسرّة لكل أحد، فهي متمنّعة في حصن حصين، والحواجز والموانع كثيرة للوصول إليها، يقول الشماخ:

فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ **وَيَنغَلُّ** حَتَّى **نَالَهَا** وَهْيَ بَارِزُ
فَأَنْحَى إِلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ غُرابُهَا عَدوٌّ لِأَوْسَاطِ العِضَاهِ **مُشَارِزُ**
فَلَمّا **اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ** رأَى غِنىً أَحَاطَ بِهِ وازورَّ عَمَّن يُحَاوِزُ(47)

فهو يصوّر هنا حجم المعاناة التي لاقاها القوّاس للوصول إلى هذه النبعة، باختراق كل هذه الأشجار الكثيفة الرطب منها واليابس، ووظف فعلي "ينجو" و"ينغل" للدلالة على ذلك، ف "ينجو" أي يقطع كل ما يصادف طريقه من فروع الشجر، و"ينغل" يتغلل مع

الجهد والمشقة، ويروى أيضا "ينحو" أي يختار ويأخذ والأول أصوب للمعنى، كما أنّ قوله "فما زال حتى نالها" فيه دلالة عميقة على استغراق زمن لا بأس به في مكابدة المشقّة والجهد لينال مراده، وما إن وصل إليها حتى اغتنم هذه الفرصة العظيمة وراح ينهال عليها بالفأس الشرسة في حدّة وشدّة كأنّ بينها وبين أوساط العضاه –أي الشجر العظيم ذو الشوك– عداوة، وعبّر عن لهفة الظفر بها وعجلته في تملّكها، بقوة القطع لدى الفأس بقوله: "مشارز" أي فأس قاطعة لكل شيء مرّت عليه(48).

ويا فرحته وهو يظفر بهذه المادة النفيسة والأصيلة والغالية، فهي كنز ثمين، وثروة لا تُقدّر بثمن، وإنما أراد الشماخ بهذا أن يؤكّد نفاستها، وأنّ هذا القوّاس الخبير الذي لطالما أنحى بفأسه على كريم النّبع، أدْرَك أنّ الذي بين يديْه ليس هو النّبعة، وإنّما هو الغنى، فحيازته لها سيُفضي إلى غنٍي يُغنيه عن الناس، أو يبيعها في المواسم فيكسب به ثروة، فلما حازها استغنى بها وانشغل عن كل من يخالطهم من الأهل والأصدقاء(49).

4-3- حِرَفيّة صاحب العمل وشدّة صَبره:

لمّا ظفر الشاعر بهذه المادة الأصيلة، شرع في صنع القوس في حِرفيّة عالية تُنبئ عن خبرته في هذا المجال، فذكر الطريقة المناسبة والوقت الذي استغرقته، حيث قال:

فَمَظَّعَهَا عامِيْنِ ماءَ لِحائِهَا وَيَنْظُرُ مِنْهَا أيُّهَا هُوَ غَامِزُ

قام الشاعر بعملية تجفيفها في الظل لأنّ تعريضها للشمس يتسبّب في تشقّقها، فقال "فمظعها ماء لحائها" أي أشربها ماء لحائها(50)، والتشريب هو أن يترك عليها ماء لحائها سنتين حتى تشرب العود ماء اللّحاء، وهذه العملية مُهمّة لمعرفة مكان العِوج فيها ليُقوّمه(51) ولا شكّ أنّ بقاءه لمدة سنتين كاملتين دليل على صبره الشديد بغية إتقان عمله وصناعة القوس صناعة جيّدة، فلم يتعجّل في ذلك، بل وفاها حقها من التشريب حتى تصير في قوة لا تضاهى.

وبعد عملية التجفيف ومعرفة مواطن العِوج فيها راح يقوّمها، يقول الشماخ:

أقامَ الثِّقَافُ والطَّرِيدَةُ دَرْأَهَا كَمَا قَوَّمتْ ضِغْنَ الشمُوسِ المَهامِزُ

والثقاف حديدة في طرفها خرق يتَّسع للقوس ليقوِّم عِوجها، والطريدة قصبة مُجوَّفة خشِنة الجوف تدخل فيها القوس لِتُبرى قِشرتها، والدّرء العِوج، والمهامز جمع مهماز وهو ما يُنخس به الفرس في جَنْبَيْه، والشّموس الفرس النّافر، والمعنى أنّ لما رآها وعرف موضع عِوجها وضعها في الثّقاف والطّريدة لِيُسوّى هذا العِوج، وشبّه هذا بالذي يُروِّض الفرس الشّموس حتى تنقاد[52]. وانظر إلى هذا الإتقان المتناهي والجودة الكبيرة في إنجاز العمل فمن قال أنّ الجاهليين كانوا بعيدين عن هذا الفن.

4-4- غلاء ثمن هذه القوس عند بيعها:

لمّا كانت هذا القوس مُتقنة الصنع، ذات جودة عالية، فلا شكّ أن العيون الخبيرة بالسلعة حين تراها سترغب فيها، وتدفع للظفر بها الغالي والنفيس، وهذا ما وقع بالفعل قال الشماخ واصفا بيعها في السوق:

فَوَافَى بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ فَانْبَرَى لَهَا بَيِّعٌ **يُغْلِي بِهَا السَّوْمَ** رائِزُ
فَقَالَ لَهُ: هَل تَشْتَرِيهَا فَإِنَّهَا **تُبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلادُ الحَرائِزُ**
فَقَالَ: **إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأَربَعٌ** مِنَ **السِّيَرَاءِ** أو **أَواقٍ** نَواجِزُ
ثَمَانٍ مِن الكِيرِيَّ حُمْرٌ كَأَنَّهَا مِنَ الجَمْر مَا ذَكّى مِنَ النَّارِ خَابِزُ
وَبُرْدَانِ مِنْ خَالٍ وَتِسْعُونَ دِرْهَماً وَمَعْ ذاكَ **مَقْرُوظٌ مِنَ الجِلْدِ مَاعِزُ**

فحين قصد القّواس السوق، تتبّعه المنبهرون بهذه القوس وجودتها، وذلك من خلال نظرة ثاقبة –في يد صاحبها– وزاد الإعجاب حين تجريبها، حينها علم القّواس برغبة الرائي المجّرب المتفحّص لهذه القوس بأنه راغب فيها، مقبِل على شرائها، ولو كلّفه ذلك مالاً كثيرًا، فبادره القّواس بقوله مباغتًا: هل تشتريها؟ وكأنّه يشوّقه لها، ففي استفهامه هنا تشويق للمشتري، ثم أخذ يُثبِت له بأنها تُباع بما يُباع به المتاع الغالي الثمن، وأكّد كلامه بـ"إنّ" إمعاناً منه في نفاستها عنده، وكلّ ذلك إشعار بأنها غالية عند هذا القّواس، فلا يقترب من شرائها إلاّ مَنْ يقِّدر ثمنها ويعرف قيمتها، فلّما علم المشتري أنه يريد بيعها، باشره بعروضه المُغْرِية، وهي إزار شرعبي وهو جنس من البرود وهو من أجود الثياب وأغلاها، وأربع شقاق من السّيَراء وهو جنس من البرود المسيرة لأنّ فيها خطوطا كالسيور، وأواق من

الذهب والفضة نواجز، جمع ناجزة أي حاضرة نقدا، و"أو" هنا بمعنى الواو، وهذه الأواقي جمع أوقيّة وهي الميزان المعروف، فبيّن أنّها ثمانية وهي من الذهب المصنوع، كأنها من شدة حمرتها جمر الخابز الذي يُذكي ناره باستمرار، وبردان من خال وهو جنس من البرود أرضها حمر وفيها خطوط خضر، وقيل ثياب تصنع باليمن، وقيل هي موضع باليمن تصنع به الثياب النفيسة، وتسعون درهما، وفوق كل ذلك جلد مدبوغ بالقرظ و"ماعز" أي شديد، وهو جراب أو وعاء لهذه الأشياء(53).

4-5- شدّة التعلّق بها لأنها متقنة الصنع:

لا شكّ أنّ التفريط في الشيء النفيس أمر صعب، وإن وقع لظرفٍ ما فستلحق صاحبة حسرة وندامة، وهذا بالفعل ما وقع لشاعرنا حينما باع قوسه، تلك القطعة الفريدة التي أبدع في صنعها، وأتقنها وأجادها، وقد تحمل لأجلها المشاق وكابد المخاطر والأهوال وصبر عليها مدة سنتين وهو يجففها ويقومها إلى أن أصبحت قوسا يتنافس عليها المشترون ويعرضون لأجلها أغلى الأثمان، فقد تردد قليلا، ثم لما اجتمع عليه الناس وأغروه ببيعها فرّط فيه، ثمّ بعد ذلك حزن عليها حزنا شديدا، قال الشماخ:

فَـظَـلَّ يُنَـاجِي نَفْسَـهُ وَأَمِـيـرَهَـا أَيَـأْتِي الـذِي يُـعْـطَى بِهَـا أم يُـجَـاوِزُ؟

فَـقَـالُوا لَهُ بَايِعْ أخاك ولا يَـكُـنْ لَـكَ اليَـومَ عـن رِبْحٍ مـنَ البَيْع لاهِـزُ

فَلَمَّا شَـراهَا فَـاضتِ العَيْـنُ عَـبْرةً وَفِـي الـصَّـدْرِ حُـزّازٌ مِنَ الـوَجْد حَـامِـزُ

تردد القوّاس –وهو الشاعر في أغلب الظنّ– وأخذ يراجع نفسه وقلبه، أهذا المال ثمن لهذه القوس أم لا؟ وهذا ممّا يدّل على مكانتها العالية عنده وشدة تعلقه بها، وأنّه لم يجبره على المجيء بها إلى السوق إلاّ الظروف القاسية، ثمّ أخذ الحضور لهذه المساومة النادرة يحثّون القوّاس ويغرونه على البيع، وألاّ يضيّع هذه الفرصة الثمينة، وأنّ هذا الثّمن المعروض لا يمكن أنْ يعطى لغيرها من جنسها، ومع شدة إلحاحهم وصخبهم وعلّو أصواتهم، باع القوّاس قوسه، واشتّد وجده عليها، حتى فاضت العين بعبرات وحّز في النفس ما حّز حتى توالت الزفرات، فهو فراق لحبيب عاش معه سنوات، وذهب من بين يديْه في لحظات. وتجد ذلك ظاهًرا في تكراره للفاء، وكأنه يتأفّف من هذا الموقف الذي أجبره الزمن عليه، وفي

ألفاظه نجد كلمة "حّزاز، وحامز" ففيهما ما فيها من الوجد والأسى ما لا يمكن معه التعبير بغيرهما، وهذا يدّل على براعة الشاعر في وصف هذا الموقف(54).

سادسا– تأثر الشعراء بزائية الشماخ واستلهامهم فكرة الإتقان منها:

أقبل الأدباء والشعراء على ديوان الشماخ وشرحوا قصائده وبينوها للقارئ، بل وتأثروا بها، فهو شاعر مُجيد ذو لغة راقية، ولم يتغير بعد الإسلام عما كان عليه في شعره في الجاهلية، من جزالة اللفظ وغرابة المعنى، لكنّ قصيدته الزائية في وصف القوس على وجه الخصوص، قد اشتهرت وراجت ولقيت قبولا لدى الأدباء والشعراء، وعدّوها من عيون الشعر العربي، وقصيدة فريدة في بابها بعد قصائد أوس بن حجر في وصف القوس، ومن أهم المعاصرين الذين تأثروا بها فيما له علاقة بموضوع الإتقان الأستاذ محمود شاكر.

وقد استحضر الأستاذ محمود شاكر قصّة القواس في زائية الشماخ، عندما جرى بينه وبين صاحبٍ له حِوار في شأن إتقان العمل، فاستلهم منها وألّف رسالته (القوس العذراء وقراءة التراث)، وفيها قصيدته وعددُ أبياتها مائتان وتسعون، وعالج فيها قضية من أحدث قضايا العصر، وهي العلم والفنّ والولوع بإتقان العمل، الذي يراه محمود شاكر في إرث طبيعته فنّا متمكّنا، وأنّ الإنسان بسليقة فطرته فنّان مُعْرق، وهذا أدقّ وأكرم ما يُستخلَص من حكاية إتقان العمل(55).

وتُعَدّ قصيدة" "القوس العذراء" من أبرز أعمال المحقق الأديب محمود شاكر، فقد قرأ قصيدة الصحابي الجليل الشماخ قراءة شعرية فنيّة رائعة. يقول عنها إحسان عباس: «لا ريب عندي في أنّ الشّعر الحديث قد ضلّ كثيراً حين لم يهتد إلى "القوس العذراء"، وأنّ الناقد الحديث كان يعشو إلى أضواء خادعة، حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي، ورموز غريبة، ولم يتسطع أن يكتشف أدواته في التراث كما فعلت "القوس العذراء"». ويقول عنها زكي نجيب محمود: «درّة ساطعة هذه بين سائر الدرر، وآية هذه من الفنّ محكَمَة بين آيات الفنّ المحكمات، وقعت عليها وأنا أدور بالبصر العجلان في سوق الكتب الحديثة الصدور فكنت –حين وقع عليها البصر– كمن كان ينبش في أديم الأرض بين المدر والحصى، ثم لاحت له بغتة –لتخطف منه البصر ببريقها– لؤلؤة، هو كتاب "القوس العذراء"». كما

وصفها محمد مصطفى هدارة بقولة: « قصيدة "القوس العذراء" رؤية جديدة في الإبداع الفني، تأخذ مكانها في الذروة من الأعمال الرائعة في أدبنا المعاصر، بل في الأدب الإنساني في كل زمان ومكان»[56].

خاتمة:

خَلُص هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- إنّ دراسة وصف القوس في الشعر الجاهلي، كفيلة بكشف أسرار وخبايا العديد من موضوعات الشعر الجاهلي وكشف مكنوناته، وقد بينت هذه الدراسة جانبا اجتماعيا هاما، ألا وهو ثقافة الإبداع وفن الإتقان عند الجاهليين.
- دقة الوصف امتزجت مع حيثيات السرد، فشكلت مشهدا فنيا للقوّاس وهو يصيد الحمر الوحشية، ثم فتح باب لوصف إجادة وإتقان صنع القوس.
- المعجم اللغوي للشماخ في زائيته يتسم بالقوة والجزالة والغرابة في كثير من الأحيان.
- رسم الشاعر لوحات فنية جميلة من وحي البادية، منذ انطلاقه بناقته يجوب الصحراء، مرورا بتصوير مشهد اصطياد الحمر الوحشية، ثم وصف صناعة القوس وإتقانها، وأخيرا ببيع القوس والحزن عليها.
- تعتبر زائية الشماخ أنموذجا رائعا عن إتقان العمل وإجادته، فقد أبدع في صناعة تحفة فردية من نوعها، تسابق المبتاعون لأجلها وعرضوا أغلى الأثمان.

الهوامش والإحالات

[1]– ينظر مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر (دت)، ص17.

[2]– أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، مكتبة وهبة، ط2، القاهرة 2012، ص05.

[3]– ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، مذكرة ماجتسير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، 2015، ص02.

[4]– ينظر: مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، ص13–14.

(5)– المرجع السابق، ص14.

(6)– ينظر: الموسى (أنور عبد الحميد): علم الاجتماع الأدبي، منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد، دار النهضة العربية، القاهرة، (دت)، ص46.

(7)– ابن جني (أبو الفتح عثمان): الخصائص، عالم الكتب، بيروت، 1983، ج1، ص122.

(8)– كالفي (جون ليفي):علم الاجتماع اللغوي، تر: محمد يحياتن، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص13

(9)– دهام (عبد القادر): الدلالة الاجتماعية للغة مقاربة سوسيولوجية، دار نوافذ، تونس، 2011، ص36

(10)– بوفرة (عبد الكريم): علم اللغة الاجتماعي، مقدمة نظرية، مطبوع جامعي، جامعة محمد الأول كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، ص11.

(11)– المرجع نفسه، ص12.

(12)– حمداوي (جميل): محاضرات في لسانيات النص، شبكة الألوكة، الرابط:
https://www.alukah.net/books/files/book_7291/bookfile/nas.pdf
تم التصفح يوم: 2022/09/18.

(13)– ينظر: ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله): الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث القاهرة، (دت)، ج01، ص304–307. والأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السّعافين وبكر عبّاس، دار صادر، ط3، بيروت، 2008، ج09، ص118–120. والبغدادي(عبد القادر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط4، القاهرة، 1997، ج03، ص197. والصَّفَدي (صلاح الدين): الوافي بالوفيات تحقيق أبو عبد الله جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2010، ج13 ص36–38. والمرزباني (أبو عبيد الله محمد): معجم الشعراء، تصحيح وتعليق ف.كرنكو، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1982، ص138. والزِرِكلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، 1980، ج03، ص175.

(14)– نُسب البيتان للشماخ بن ضرار كما في الإصابة(210/03) نقلا عن أبي الفرج، وروى صاحب الأغاني الأول منهما فقط ونسبه للشماخ(98/08)، وكذا صاحب الوافي بالوفيات(463/14). والصواب أنّ البيْتيْن لمزرّد، فَهُما له–مع بعض الاختلاف في الرواية والترتيب– في الشعر والشعراء(274/01)، والإصابة(58/06)، والعمدة(55/01)، والاستيعاب(302/01)، وأسد الغابة(351/04). والبيتان معا في ديوان مزرد ص63 مع بعض الاختلاف في الرواية. ومما يرجّح نسبتهما لمزرّد أخي الشماخ أنّ مزرّدا هو الذي هجا بني أنمار في غير موضع من ديوانه، بينما لم يرد للشماخ هجاء لبني أنمار في ديوانه. ينظر: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص454.

(15)– صحح أحمد محمد شاكر عند تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء هذا الخطأ الذي وقع فيه العلماء والرواة من أمثال أبي الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني والبغدادي صاحب الخزانة، وقال إنّ هذا الوصف لأخيه مزرّد وليس للشماخ. ينظر: ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله): الشعر والشعراء، ج01 ص304.

(16)– يريد عباراته وألفاظه وصياغته.

(17)– يريد بناء الكلام وتركيبه، يعني أنه غير مشرخٍ ولا ضعيف متخالف.

(18)– يريد أنه قليل الماء غير ليّن ولا سهل، بل فيه يُبس وتقبّض.

(19)– ينظر: الهادي (صلاح الدين): الشماخ بن ضرار الذبياني، حياته وشعره، ص80–107. نقلا عن الديوب (سمر): البُعد الحجاجي في رائيّة الشماخ بن ضرار الذبياني، مجلة جامعة البعث، المجدل39، العدد32، سورية، 2017، ص157.

(20)– ينظر: المرجع نفسه، ص113.

(21)– ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص515.

(22)– ينظر: السويدي (سلامة عبد الله): القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد21، 1998، ص247. وعبد الحليم (طارق): دراسات مقارنة في الشعر العربي، موقع الشيخ طارق عبد الحليم، الرابط:
(http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73163) تم الاطلاع عليه يوم: 2022/08/12.

(23)– ينظر: مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص14.

(24)– ينظر: بوتيوتة (عبد المالك): تجليات السرد في القصيدة الجاهلية، مذكة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد منتوري قسنطينة، 2007، ص101.

(25)– السراج (رافعة سعيد): مستويات الأسلوب في زائية الشماخ بن ضرار –القوس والطريدة– أنموذجا، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد19، العدد12، ديسمبر، 2012، ص81.

(26)– القيرواني (ابن رشيق): العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، بيروت، 1981، ج01، ص261.

(27)– كنوني (محمد): اللغة الشعرية دراسة في شعر حميد سعيد، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد 1997، ص173.

(28)– التبريزي (الخطيب): الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحسّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1994، ص148.

(29)– أنيس (إبراهيم): الأصوات اللغوية،مكتبة الأنجلو مصرية، ط4، القاهرة، 2007، ص74.

(30)– السراج (رافعة سعيد): مستويات الأسلوب في زائية الشماخ بن ضرار، ص83.

(31)– عبد الباقي (فؤاد): المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ ص484–488.

(32)– رواه الطبراني في الأوسط (891)، وأبو يعلى (4386)، والبيهقي في شعب الإيمان (334/04) وابن عدي في الكامل (2359/06). ينظر: موقع ملتقى أهل الحديث، الرابط: (https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=3253). تم الاطلاع عليه يوم: 2022/08/13.

(33)– مسلم (أبو الحسين): صحيح مسلم، تشرف بخدمتها والعناية بها أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، ط1، الرياض، 2006، ج02، 941.

(34)– ينظر: الشمري (عبد علي): مشاهد الصراع في لوحة الصيد في الشعر الجاهلي، مجلة كلية التربية، العدد الرابع، ص30.

(35)– ينظر: وطفة (علي): إشكالية المفهوم في الخطاب العربي، قراءة اجتماعية، مجلة التعريب العدد19 2000، ص160.

(36)– ينظر: المشهراوي (عصام محمد): دلالات الوحدة في قصيدة الصيد الجاهلية، مجلة جامعة الأزهر، المجلد12، العدد02، غزة، 2010، ص122.

(37)– ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، ص23.

(38)– ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص183. والتلاد: كل مال قديم من حيوان وغيره يورث عن الآباء، وقليل التلاد أي لا تلاد له فلا يملك سوى قوسه وأسهمه. وتارز: أي جامد بارد يصيب كيف يريد.

(39)– عبد المالك (بوتيوتة): تجليات السرد في القصيدة الجاهلية، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات جامعة منتوري قسنطينة، 2007، ص100.

(40)– ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص191–193

(41)– المرجع السابق.

(42)– المرجع السابق: ص182–183.

(43)– ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، ص33.

(44)– ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص184.

(45)– ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص517.

(46)– المرجع السابق، ص518.

[47]– ينظر: السويدي (سلامة عبد الله): القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص248.

[48]– ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص148–149.

[49]– ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص520.

[50]– المرجع السابق: ص521.

[51]– ينظر: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص185.

[52]– ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص522.

[53]– ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، ص35–36.

[54]– المرجع السابق.

[55]– ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص"ك".

[56]– موقع إسلام ويب، الرابط:

http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=148232

تم الاطلاع عليه يوم: 2022/08/13.